الباب الأول

التصور القوميّ لخطاب عبد الناصر ، وتنامي مفردات الفكر الناصري ، والإضافات الناصرية لمحتوى القومية العربيّة

الفصل الأول : التصور القومي لخطاب عبد الناصر ، وتنامي مفردات الفكر العربي الناصري.

الفصل الثاني : الإضافات الناصرية لمحتوى القوميّة العربيّة

obeikan.com

obeikan.com

الباب الأول

التصور القوميّ لخطاب عبد الناصر ، وتنامي مفردات الفكر الناصري ، والإضافات الناصرية لمحتوى القومية العربيّة

تمهيد

كانت الأيام الأولى لجمال عبد الناصر (١٩١٨ – ١٩٧٠)، والأحداث القومية، وسيما قضية فلسطين، فجرت لديه الاهتمامات العربية، كذلك أدى انضمامه أيام الدراسة إلى بعض المنظمات الراديكالية: مثل حزب مصر الفتاة بزعامة أحمد حسين (١٩١١ – ١٩٨٢)، أو الإخوان المسلمين بزعامة حسن البنا (١٩٠٦ – ١٩٤٩)، أو منظمات شباب الوفد.. وقد أدى أيضًا مشاركته في الأيام الأولى لمراحله الدراسية في الإسكندرية، ثم القاهرة في المظاهرات الطلابية إلى الاهتمام الفعلي بالقضايا القومية، وإيجاد تصور قومي للقضايا والمعضلات العربية، وفهم دائرتها بشكل صحيح..

كما ينضاف إلى ذلك الروافد الثقافية والفكرية ، من خلال قراءات عبد الناصر ، ونهمه الشديد للمعرفة؛ جعلته يتنبه لمدى أهمية التاريخ والجغرافيا السياسية للمنطقة العربية، وكذا الدائرة الملاصقة لها ، وهي الدائرة الأفريقية.. كما أن تجربة عبد الناصر (١٩١٨ – ١٩٧٠) قد أنضجت الرؤية العروبية لديه ، وقد وضح ذلك من خلال كتابه : «فلسفة الثورة» ؛ حيث يقول: « أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ، ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبط مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلًا ، لا مجرد كلام؟ »[1].

– **ولسوف ندرس في الأوراق التالية :** التصور القومي ، وخطاب عبد الناصر القومي ، والإضافات القومية والعروبية ، من خلال التجربة ، والتي وسمت القومية العربية من خلال تجربة عبد الناصر بسمات متفردة ، ومدى أهمية هذه الرؤية في دفع حركات التحرر العربي أولًا ، ثم الأفريقي ثانيًا.

(1) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥م ، ص ٥٩.

الفصل الأول

التصور القومي لخطاب عبد الناصر السياسي وتنامي مفردات الفكر الناصري العربيّ

يبدو من خلال الخطاب الناصري القوميّ بأنه : خطاب تدريجي – كما تذكر مارلين نصر – حيث تعمل في آنٍ واحد عمليات نضوج بطيئة وتحولات نهائية ، ويبقى هذا البناء التدريجي للخطاب «الناصري» طوال المسيرة «الناصرية» شديد الارتباط بتجربة تاريخية ، وبممارسة سياسيّة تسبقانه، وتحكمان عليه[1].

– **فمن بدائه الأمور** : أن «الخطاب الناصري» لم يكن خطاب لأحد المنظرين Theorists ، أو الأيديولوجيين ، الذين يهتمون أولًا ببناء نظرية شاملة ومتكاملة الأطراف والزوايا ، ولم نكن – أيضًا – أمام خطاب لأحد المجالدين ، الذين تحركهم بنوعٍ خاص الرغبة في الرد على الحجج ودحضها ، أو نشر مجموعة من المفاهيم والتصورات الذهنية الرنانة.

– ولكن في حقيقة الأمر ، وكما تقول – نصر – في هذا الصدد : أننا « نحن أمام رجل دولة، وقائد قومي ، أصبح زعيم الحركة العربية المعاصرة ، وخطابه يحاول أن يعبر بشكل مترابط عن طموحات انتفاضة جماهيريّة للشعوب

(1) د. مارلين نصر : التصور القومي العربي عند عبد الناصر، من كتاب مصر والعروبة وثورة يوليو، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ، ص٥٤.

العربيّة، وعالمها الرمزي ، وعن بروز العرب كعامل تاريخي مستقل[1].

- ونحن نتفق مع فؤاد المرسي خاطر في أن موقف الثورة Revolution من العروبة ، وتبنيها للفكرة القوميّة العربية ، وما قامت به من أدوار في هذا المجال يرتبط بلا شك في أحد أبعاده بشخصية قائد تنظيم الضباط الأحرار ، وزعيم الثورة جمال عبد الناصر (١٣٣٦ - ١٣٩٠هـ - ١٩١٨ - ١٩٧٠م) ، فقد كان يفكر ليس فقط كمصري وطنًا ، وإنما أيضًا كعربي[2].

- فقد بدأ الفكر القومي العربي لدى عبد الناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠) في التكوين الفكري قبل عام ١٩٥٢ ، فقد عاصر فترة كبيرة من زمن النصف الأول من القرن العشرين - وكما يذكر خاطر - أنه كانت مرحلته الشبابية والتي تبلور وعيه في فترة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين تلك الفترة ، والتي شهدت تطور الفكرة العربية في مصر في اتجاه إيجابي متصاعد ومتعاظم ، وكان من الطبيعي ، بل من المتوقع أن يتأثر عبد الناصر ما كان سائدًا في ذلك الوقت من أحداث وآراء وأفكار العديد من الشخصيات الفكرية / السياسيّة ، والتي لعبت دورًا هامًا في نشر الفكرة العربية في مصر، ومنها على سبيل المثال عزيز علي المصري (١٨٧٩ - ١٩٦٥) ، والذي كان له تأثير مباشر على عبد الناصر ، حيث كان أستاذه في الكلية الحربية ، وكان يمثل لجيل الشباب من العسكريين بأنه مصلح عسكري وثوري قديم معروف بكراهيته للإنجليز .. وكذلك تأثير المفكر القومي المعروف ساطع الحصري (١٨٧٩ - ١٩٦٨) ،

(1) د. مارلين نصر : مرجع سابق ذكره ، ص٥٤ .

(2) د. فؤاد المرسي خاطر : حول الفكرة العربية في مصر ، ص١٣٥.

والسياسي مكرم عبيد (١٨٨٩ – ١٩٦١)، وعبد الرحمن عزام وآخرين [١].

– هذا إلى جانب أن الأحداث في فترة الثلاثينيات، وما تلاها من سنوات من نضال من أجل الاستقلال Autonomy، والتخلص من السيطرة الاستعمارية، كان لها أثر كبير في الوعي القومي العربي لدى عبد الناصر، وغرس مفهوم الوحدة العربية في فترة مبكرة من حياته. [٢]

– ففي خطاب له قال عبد الناصر: «الناس اللي بيقولوا إن الشعب المصري مش عربي وأن عروبته كانت مفقودة.. أنا بافتكر وأنا في سنة واحنا في ثانوي لما كان بيحصل حاجة في دمشق أو بيروت كانت المدارس تطلع في مظاهرات وتهتف بالوحدة العربية يحيا العرب» [٣].

– وكانت لقضية فلسطين وأزمتها مكانًا هامًا في فكر جمال عبد الناصر (١٣٣٦ – ١٣٩٠ هـ – ١٩١٨ – ١٩٧٠م)، حيث فجرت فيه الوعي بالعروبة والشعور بالانتماء للأمة العربية في مرحلة مبكرة من حياته، ففي كتاب «فلسفة الثورة» قال عبد الناصر: «وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي أن طلائع الوعي العربيّ بدأت تتسلل إلى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر نوفمبر من كل سنة احتجاجًا على وعد بلفور، الذي منحته بريطانيا لليهود، ومنحتهم به وطنًا قوميًا في فلسطين اغتصبته ظلمًا

(1) د. فؤاد المرسي خاطر: حول الفكرة العربية في مصر، دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص١٣٦.

(2) د. فؤاد المرسي خاطر: مرجع سابق ذكره، ص١٣٦.

(3) خطاب جمال عبد الناصر بمناسبة العيد الحادي عشر لثورة ٢٣ يوليو في ٢٣/ ٧/ ١٩٦٣.

من أصحابه الشرعيين، وحين كنت أسائل نفسي في ذلك الوقت: لماذا أخرج في حماية ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التي لم أرها؟ لم أكن أجد في نفسي سوى أصداء العاطفة.. ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع لـمّا أصبحت طالبًا في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة»[1].

– ويمكن أن نقول مع بعض الباحثين: إن قضية فلسطين واغتصابها عام ١٩٤٨ ، قد لعبت دورًا في أن يكون الوعي القومي العربي لدى عبد الناصر نابعًا من فكر موضوعي وقناعة كاملة وليس مقتصرًا على الاستجابة العاطفية ، والتي تحركها القضية ، وكما حدث له في مرحلته الشبابيّة – كما ذكرنا من قبل – ويتضح هذا الفكر الموضوعي كما ذكر في فلسفة الثورة «ثم بدأ الفهم يتضح وتنكشف الأعمدة التي ترتكز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب في كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل.. ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعًا في أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالًا في أرض غريبة ، وهو ليس انسياقًا وراء عاطفة ، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس!!»[2].

(1) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، طبعة عام ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م (الطبعة الأولى) ، ص ٦١ ، ٦٢.

(2) جمال عبد الناصر: مرجع سابق ذكر ، ص٦٢.

- ويؤكد محمد حسنين هيكل على مراحل نمو الوعي القومي واستكماله خلال مراحل عبد الناصر التاريخية ، فيقول في كتابه « ملفات السويس» عن هذه المراحل : «لم يكن البعد العربي في تفكير «جمال عبد الناصر» قد استكمل مراحله بعد عندما تحمل مسؤولية دور رجل مصر القوي ، وأصبح مسؤولًا عن سياستها باعتباره قائد ثورتها الجديدة.. وفي الحق فإن تفكير «جمال عبد الناصر» العربي كان في تلك الفترة يتعرض لدرجات من النمو والنضوج ، ولم يكن قد استقر بعد على قرار... في أول عهده بالتفكير عربيًا ، وهي الفترة التي عمل فيها دارسًا ومدرسًا للتاريخ العسكري والإستراتيجية ، كان اهتمامه «العربي» مركزًا على مقتضيات الدفاع عن مصر ، وكان متأثرًا بخط الجنرال اللنبي ، الذي قاد معارك الحلفاء ضد الألمان والعثمانيين والشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الثانية.. وبالتالي فإنه في هذه المرحلة من تفكيره ، لم يكن ينزع إلى وحدة الانتماء والمصير ، وإنما إلى رابطة الدفاع فحسب.. وفي مرحلة لاحقة ، وعندما أصبح « جمال عبد الناصر» ضابطًا مقاتلًا في فلسطين باعتباره ضابط أركان فرقة المشاة السادسة في الجيش المصري ، بدأ يستوعب حقائق جديدة .. وكانت هذه الحقائق تلح عليه كل يوم عندما حُوصرت الكتيبة السادسة ضمن القوات المصرية ، التي عزلتها القوات الإسرائيلية في جيب الفالوجة.. وفي هذا المناخ التقى «جمال عبد الناصر»

بكثيرين من ضباط الجيش الأردني، والجيش العراقي أحيانًا، كما أنه بطبيعة الحال كان يعيش وسط قرى فلسطينية، ويلتقي أحيانًا بكثيرين من المناضلين الفلسطينيين، وكان عقله مفتوحًا وقلبه، وأعطته ظروف الحصار فرصًا للتأمل والتفكير، ولقد عاد من فلسطين بعد الحرب بشعور من المرارة شديد، لكنه عاد، ومعه بداية إحساس بالانتماء، وبأن العرب جميعًا يخوضون معركة واحدة.. وفي السنوات اللاحقة لحرب فلسطين عام ١٩٥٠، ١٩٥١ كان «جمال عبد الناصر»، شديد الاهتمام بما يجري في بقية العالم العربي[١].

- ويذكر جورج فوشيه أن حركة الضباط الأحرار فقدت الكثيرين من أعضائها الذين سقطوا في ساحة الشرف غير أنّ التجربة المرة للهزيمة (في عام ١٩٤٨) أقنعت الطبقة المختارة في الجيش بأنه إذا أريد لمصر أن تصبح قوية يجب تغيير الأوضاع القائمة فيها من أساسها[٢].

- وبعد عودة القوات المسلحة إلى مصر التقى الصاغ كمال الدين حُسين وجمال عبد الناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠) في معسكر العريش، وروى له الكلمات الأخيرة التي فاه بها صديقهما المشترك أحمد عبد العزيز (١٩٠٧ - ١٩٤٨) في بيت لحم قبل أن يركب إلى جانب صلاح سالم (١٩٢٠ - ١٩٦٢) التي لقى فيها مصرعه على طريق عراق المنشية إذ قال له: «اسمع يا كمال.. إن ميدان الجهاد الحقيقي ليس هنا..إنما هو في مصر.. فهناك ميدان الجهاد الأكبر، وفكر جمال

(1) محمد حسنين هيكل: ملفات السويس حرب الثلاثين سنة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مؤسسة الأهرام بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦م، ص١٩٦، ١٩٧.

(2) جورج فوشيه: جمال عبد الناصر ورجاله، رفاق الكفاح في سنوات المواجهة، كنوز للنشر والتوزيع، دراسة وتقديم د. الحسيني الحسيني معدّي، طبعة ٢٠٠٨، ص٢٤٧.

مرارًا بهذه الكلمات، وقرر مع أصدقائه إعادة تنظيم صفوف الضباط الأحرار»[1].

- وكما أشرنا من قبل إننا نتفق في هذا الصدد مع العديد من الباحثين في أن قضية فلسطين كان لها تأثير كبير على بؤرة الوعي القومي العربي عند جمال عبد الناصر، ويتضح فيها إدراكه التام لأبعاد هذه القضية، والذي تحول من اهتمام تقضي به العاطفة، إلى إدراك عقلي واعي للقضية الفلسطينية، وتأثيرها على مصر، خاصة في الفترة والتي كان فيها مجربًا بحق مرارة الحرب في فلسطين، والتي قال فيها: «إن نطاق سلامتنا يقضي علينا أن ندافع عن حدود إخواننا، الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم في منطقة واحدة»[2].

- وقد مرت مصر بأحداثٍ جسام عمقت من الفكرة العربية داخل الكيان المصري، وجعلت من زعامة جمال عبد الناصر (١٣٣٦ هـ - ١٣٩٠ م - ١٩١٨ هـ - ١٩٧٠م) زعامة قومية عُروبية ورمزًا معبرًا عن الطموحات الجماهيرية من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، فقد كانت مقاومة الثورة المصرية وزعيمها لحلف بغداد، والتي كانت نواته في الثاني عشر من يناير عام ١٩٥٥ تعبيرًا عن رفض مصر لارتهان الوطن العربي للتبعية الاستعمارية البغيضة، وكذا جاء مشاركة مصر ودورها الفاعل في مؤتمر باندونج في نفس العام، وما قام به عبد الناصر من دور بارز في تدعيم هذا المؤتمر، والذي بدوره تعامل مع عبد الناصر كزعيم عربي أكثر منه مجرد زعيم مصر[3].

(1) جورج فوشيه: جمال عبد الناصر ورفاقه، كنوز للنشر، عام ٢٠٠٨، ص٢٤٧.

(2) د. فؤاد المرسي خاطر: حول الفكرة العربية في مصر، ص١٣٨.

(3) د. فؤاد المرسي خاطر: مرجع سابق ذكره، ص١٤٤.

– وما لبثت الأمور أنّ تقدمت خطوة أخرى دفعت مصر ، ودعمت مكانتها في العالم العربي Arab World وهو ما حدث في السابع والعشرين من سبتمبر ١٩٥٥ ؛ حيث وقعت مصر اتفاقية مع تشيكوسلوفاكيا لتوريد الأسلحة لمصر ، وكان هذا اتفاقًا تاريخيًا في العالم العربي ، واعتبر انتصارًا كبيرًا لعبد الناصر على مستوى العالم العربي Arab World .

– كما كانت الغارة الإسرائيلية على قطاع غزة في فبراير ١٩٥٥ حدثًا آخر ضمن الأحداث التي شهدها عام ١٩٥٥ ، والتي قادت جميعها إلى أن تتفاعل مصر تفاعلًا كاملًا مع قضايا الأمة العربية[١] .

– أما حرب ١٩٥٦ فهي نقطة التحول الفعلية في توجه مصر القومي .

– كما يرى محسن خضر ، ونحن نوافقه في ذلك – فهذه الحرب الضروس والعدوان الثلاثي (من إسرائيل – فرنسا – إنجلترا) على مصر ، لم تتوج فقط زعامة جمال عبد الناصر القومية أو أرخت بداية مشروعه القومي العربيّ فحسب، بل أنها على وجه القطع حسمت قضية عروبة مصر ، ودورها القومي العربيّ، فقد اكتشف جمال عبد الناصر (١٩١٨ – ١٩٧٠) من خلال أحداث ونتائج حرب ١٩٥٦ الأبعاد الواسعة والعميقة للنضال العربي الواحد ، والذي تجلى بشكل غير مسبوق في مساندة العرب لمصر في تلك الحرب War .. ومن بين نتائج الحرب إفرازها القيادة القوميّة البارزة لعبد الناصر ، والتي ساهمت الجماهير العربية بحماسها الضخم في صناعة قيادته الكاريزمية Charisma ،

(١) د. فؤاد المرسي خاطر : حول الفكرة العربية في مصر ، دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥، ص١٥٢.

وأدى ذلك إلى اتساع نطاق المفهوم الوطني ، وامتداده بعمق كبير ليلتحم بالمفهوم القومي العربي في الشخصية المصرية وبلورتها لمضامينها .. ومن ذلك الوقت أصبحت الأمة العربية لا تغني إلاّ لقائد واحد حتى لو استمتعت لعشرات من منافسيه[١].

- وما كان من ثورة يوليو ١٩٥٢ إلا أن تعلن عروبة مصر رسميًا ، فكان الدستور المصري في السادس عشر من يناير ١٩٥٦ وثيقة رسمية تؤكد انتماء مصر العربي ، حيث نصت المادة الأولى من الدستور على أن مصر دولة عربية ذات سيادة وهي جمهورية ديمقراطية والشعب المصري جزء من الأمة العربية[٢].

وبذلك – وكما يقول فؤاد المرسي خاطر – تقنن دور مصر الجديد في العالم العربي بواسطة جمال عبد الناصر زعيم الثورة المصرية ، حيث أنه لأول مرة في تاريخ مصر الحديث تعلن المادة الأولى من الدستور Constitution عروبة مصر ، وكانت مصر بذلك ثاني دولة عربية تدخل ما يعلن عن عروبتها في دستورها بعد دولة سوريا العربية[٣].

(1) د. محسن خضر : الاتجاه القومي العربي في التعليم المصري ، ص٤١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٩٢.

(2) د. فؤاد المرسي خاطر : حول الفكرة العربية في مصر ، ص١٥٣.

(3) د. فؤاد المرسي خاطر : مرجع سابق ذكره ، ص١٥٤.